

**معالم النقد والتجديد والمراجعة لمنهج التفسير لدى بعض أعلام مدرسة
المنار: الشيخ محمد عبده نموذجاً**

***Criticism, renewal, and a revision of the interpretation approach
of some pioneers of Al-Manar school: Sheikh Muhammad Abdo
as a model***

د. عبد العزيز ديدي: أستاذ التعليم العالي مساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي
إسماعيل مكناس المملكة المغربية.

Dr. Abdelaaziz Didi: Assistant Professor at Moulay Ismail University,
College of Arts and Humanities, Meknes, Kingdom of Morocco

E-mail: didiabdelaaziz@gmail.com

الملخص:

تعد جهود أعلام مدرسة المنار من الجهود التجديدية في العصر الحديث؛ وفي مقدمتهم؛ جهود محمد عبده الذي كانت له رؤية خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع مناهج التراث الإسلامي، من حيث منهج استثمارها في سبيل إحياء نهضة الأمة، وانتشالها من أحوال التخلف والانحطاط الذي تعيش فيه. وقد كانت للشيخ رؤية نقدية تجديدية لكثير من مناهج التراث الإسلامي، وبخاصة في مجال التفسير، الذي كانت له فيه رؤية نقدية تجديدية فريدة. ويرمي البحث إلى التوقف مع معالم النقد والتجديد والمراجعة، وبواعث كل منها عند الشيخ محمد عبده رحمه في مجال التفسير. واعتمد الباحث على المنهج الوصفي في مقارنة عناصر هذا البحث. وأسفرت الرؤية النقدية التجديدية لعلم التفسير عند الشيخ محمد عبده عن منهج جديد في علم التفسير في العصر الحديث، منهج يطبعه الاشتغال بمقاصد الكتاب العزيز، واستلهاهم الفقه السنني منه، ومراجعة كثير من مرتكزات التفسير عند القدامى، بما يجعل هذا العلم ينبض بمشكلات هذه الأمة، وقضاياها الراهنة، وهو ما يعتبر تجديدا في منهج التفسير. وأوصى الباحث بمجموعة من التوصيات أبرزها ضرورة البحث في تراث الشيخ محمد عبده ما يزال بحاجة إلى عناية أكبر في سبيل الاستفادة من رؤيته التجديدية في مجالات أخرى غير مجال التفسير.

الكلمات المفتاحية: محمد رشيد رضا، محمد عبده، تجديد، اصلاح، مدرسة المنار.

Abstract:

The efforts of Al-Manar School pioneers, led by the efforts of Sheikh Muhammad Abdo, who had a special vision regarding dealing with the curricula of Islamic heritage, in terms of investing them in order to revive the renaissance of the nation, and to rescue it from the stalemate and decadence in which it lives. The Sheikh had a critical innovative vision for many of the Islamic heritage curricula, especially in the field of interpretation, in which he had a unique innovative critical vision. The research aims to tackle the features of criticism, renewal and the revision, and the motives of each of them according to Sheikh Muhammad Abduh, in the field of interpretation. The descriptive analytical method was the mainstay in approaching the elements of this research. The research reached a several **results like:** The innovative critical vision of the science of interpretation of Sheikh Muhammad Abdo, may God have mercy on him, resulted in a new

approach in the science of interpretation in the modern era, an approach that is characterized by engaging with the purposes of the Quran, drawing inspiration from Sunni jurisprudence from it, and reviewing many of the foundations of interpretation for the ancients, which makes this science come alive with the problems of this nation.

keywords: Criticism, Renewal, Interpretation, Muhammad Abdo, Method.

المقدمة:

الحمد لله الذي جعل الشريعة ملاذًا يَأْرِزُ إلى هُداها كلَّ جيل، وحصنًا حصينا تحتمي به الأمة من كل خطر دخيل، فأقام على منهجها أعلام البيان ونصب أوضح الدليل، وقبض لها علماء مجددين يحيون ما اندرس من تعاليمها، ويهدون بنورها إلى سواء السبيل، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير الورى، سيدنا محمد المخصوص بالتنزيل، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى القائمين بأمر الشريعة من بعده من غير تبديل، وعلى كل من اقتفى أثرهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فمن خصائص هذه الشريعة الغراء؛ أنها شريعة الزمان والمكان ومن يتقلب بينهما من إنسان؛ شريعة تستمد عناصر ديمومتها ومكامن قيميتها من طبيعة الوحي الذي صدرت عنه، ولذلك ما فتئت الأمة ترجع إليه افتقارًا، وتثوّر بمناهج النظر فيه السنن والنواميس اعتبارًا، وتجدد به السير دأبًا واستمرارًا.

غير أنه تأتي على الأمة أوقات عصيبة يحاط بها من كل جانب، ويتناول عليها كل معتد غالب، فتضعف صلتها بهذا التراث استمدادًا، وتخبو جذوة التلقي عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم اعتمادًا، فيقبض الله للأمة أعلامًا مجددين، ينفضون عن هذا التراث غبار التقليد، وينفخون في الأمة روح التجديد والتقصيد لمناهج تراثها التليد؛ لينهض بعمق رسالتها، ويبني لها بين الأمم مجدا لا تبغي عنه حولا ولا تحيد.

ومن المدارس التي قبضها الله تعالى لهاته المهمة؛ مدرسة المنار التي ابتدأ مسيرتها الشيخ جمال الدين الأفغاني، وبقاه في ذلك تلامذته ومن أبرزهم الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، والتي تركت بصمة كبيرة في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر.

لقد انطلقت هذه المدرسة في عملها التجديدي من التراث مرجعا، لكنها سرعان ما عملت على الدعوة إلى تجديد التعامل معه في مختلف مجالاته وجوانبه، عقيدة، وفقها، وتفسيرا...، فكان أن دعت إلى ضرورة أن تتجدد مناهج التعامل مع تراث الأمة؛ بما يحقق نهضتها، ويقوي شوكتها ومنعتها، ويمكنها من التدافع مع الغير، خاصة إبان نكبة الأمة في العصر الحديث عقب وقوع كثير من البلاد الإسلامية تحت نير الاحتلال الصليبي.

مشكلة البحث:

يتأسس إشكال هذا البحث على استقراء جهود واحد من أعلام هذه المدرسة التجديدية في العصر الحديث، وهو الشيخ محمد عبده، وبيان مدى إسهامه في تجديد ونقد بعض مناهج التراث الإسلامي؛ خاصة في مجال التفسير الذي يمم الشيخ محمد عبده وجهه شطره، وجعله منطلقا لبيان رؤيته الإصلاحية التجديدية، والإسفار عن منهجه التجديدي الذي يترجم خلاصة فكره وزبدة نظره،

كما يترجم جزءا كبيرا من رؤية المدرسة التي ينتمي إليها، والتي كان له كبير الفضل وعظيم الإسهام في بناء منهجها، وتشديد صرح فكرها، إلى جانب كبار روادها، وفي مقدمتهم تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا. وقد استطاعت هذه المدرسة بفضل الجهود التجديدية لأعلامها؛ وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده -استطاعت- أن تزاخم كبرى اتجاهات التفسير في القديم والحديث، وتمكنت من إرساء منهج انطلقت فيه من نقد المناهج التفسيرية في التراث الإسلامي، لتنتقل من رؤية مفادها ضرورة تثوير معاني الكتاب العزيز ليكون الموثل الأساس والميزان القسطاس الذي ترجع إليه الأمة في حل مشكلاتها، وذلك ما يحتم -بحسب رواد هذه المدرسة- ضرورة تجديد التعامل مع مناهج التفسير لتكون معبرة عن نبض الأمة، فتستخرج منها السنن الشرعية والاجتماعية الكفيلة بإحيائها، من خلال إحياء الدين ومظاهره وشعائره في واقعها وصولا إلى تحقيق تدافعها الحضاري مع غيرها من الأمم. ومن هنا نطرح التساؤلات الآتية:

- ما مسوغات النقد والتجديد والمراجعة لعلم التفسير عند الشيخ محمد عبده؟
- ما أهم المرتكزات العلمية التي استند إليها الشيخ محمد عبده في نقده لمنهج علم التفسير؟
- ما أهم معالم التجديد لعلم التفسير في منهج الشيخ محمد عبده؟

منهج البحث:

كان المنهج الوصفي التحليلي العمدة في مقارنة عناصر هذا البحث، بالنظر إلى ما يتيح من إمكان جمع المادة العلمية وتحليلها وتوظيفها.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الوقوف عند جهود هذه المدرسة التجديدية الإصلاحية عامة، وجهود أحد أبرز روادها، وبيان منهجه في النقد والتجديد لعلم التفسير، ثم القصد إلى بيان وتجليات أهم مرتكزاته سواء في جانب النقد، أو جانب التجديد، وتجليات ذلك كله في فكر ومنهج الشيخ محمد عبده.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في هذا الموضوع، في كونه يسعى إلى إبراز جهود أحد رواد الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، وهو الشيخ محمد عبده في مجال التفسير، والذي استطاع أن يخط منهجا جديدا في التفسير قوامه التركيز على البعدين المقاصدي والسنني، وهما ميسمان طبعاً منهج التفسير الذي ابتدأه الشيخ، وأكمّله تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، وذلك في تفسيرهما المسمى بتفسير "المنار".

المبحث الأول: مقتضيات تجديد علم التفسير عند محمد عبده¹

يعتبر مجال علم التفسير واحدا من المجالات التي جسد من خلالها الإمام الشيخ محمد عبده رؤيته الإصلاحية المنبثقة من التجديد لمناهج التراث الإسلامي، فطفق برؤيته التجديدية تلك يخط معالم التفسير المعاصر لكتاب الله تعالى، الذي يبنّي على الإفادة من جهود السابقين، من غير الجمود عليها، بل إن الإمام لم يستكف عن نقد ما حقه النقد من أقوال المفسرين؛ بله مخالفة أقوالهم واختياراتهم، حتى أضحي منهجه في التفسير بيّن الرسم، جليّ الوسم بين مدارس التفسير، ومناهج المفسرين في تاريخ الأمة قديمها وحديثها، وقد استطاع أن يخط معالم منهج جديد في التفسير، قفاه في ترجمة معالمه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا² في تفسير المنار، فضلا عن عدد من كبار مفسري العصر الذين ساروا على هذا المنهج، وإن اختلفوا معه في بعض جزئياته وتفصيله،

إن مما أوقد جذوة التجديد في التفسير عند الإمام الشيخ محمد عبده - وقد تأثر في ذلك بشيخه جمال الدين الأفغاني³ -؛ رغبته الكبيرة في أن يكون لأهل عصره نظر مستقل في هذا الكتاب العزيز،

¹ - هو محمد عبده حسن خير الله، ولد عام (1266هـ / 1849م) بقرية "محلة نصر" محافظة "البحيرة" بمصر، ينحدر من أسرة عرفت بمقاومتها لظلم الحكام، تلقى تعليمه الأولي بقريته، ثم انتقل إلى الجامع الأحمدى بطنطا، ثم التحق بالأزهر، كان ميالا إلى التيار المحافظ في الأزهر، قبل أن يتأثر بالشيخ جمال الدين الأفغاني، وكانت له تجارب سياسية خاضها مع بعض الأحزاب، حيث انضم إلى الحزب الوطني الحر، رحل إلى بيروت لبنان، ثم لحق بأستاذه الأفغاني بباريس، ولما رجع إلى مصر كانت له رؤية إصلاحية مضى فيها، واجتهد في تنزيلها فيما نقله من الوظائف، وعلى رأسها "مفتي الديار"، ترك الاهتمام بالسياسة منذ رجوعه من باريس، ومشروعه الإصلاحي واحد من بين أهم المشاريع الإصلاحية التجديدية في العصر الحديث، ترجم عناصره فيما كان ينشر له من مقالات في "العروة الوثقى" وغيرها، ونقل جزءا من منهجه في التفسير الشيخ محمد رشيد رضا في "تفسير المنار"، توفي عام (1323هـ / 1905م)، تنتظر ترجمته مفصلة عند: العقاد عباس محمود (2013م)، "عقبى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده"، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم، ص 55 وما بعدها. وينظر كذلك: عمارة محمد، (2006م)، "الإصلاح بالإسلام، معالم المشروع الحضاري للإمام محمد عبده"، مصر: ط1، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص: 05، وينظر: عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده"، مصر: ط1، دار الشروق: 19/1.

² - هو محمد رشيد بن علي رضا، من أعلام الفكر الإصلاحي في العصر الحديث، ولد ببلدة القلمون نواحي طرابلس الشام عام (1282هـ / 1865م)، من أسرة متدينة، تلقى تعليمه الأولي بقريته، فحفظ القرآن وحصل العلوم التي تؤهله للانخراط في سلك العلماء، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس الشرق، كما درس بعد ذلك ببيروت، وحصل شهادة العالمية. كان يغلب على تكوينه وفكره المنهج السلفي قبل أن يتأثر بفكر ومنهج جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، مما كان يُنشر لهما في مجلة "العروة الوثقى"، كانت له أعمال جليلة يأتي في مقدمتها، نشره لفكر شيخه محمد عبده، خاصة ما يتعلق بتفسيره، حيث كان الوحيد من بين طلبته الذي يدون تلك الأقوال، قبل أن يؤلف تفسير المنار، وله مؤلفات عديدة تدل على سعة علمه، وهو من كبار رواد الإصلاح في مدرسة المنار، توفي عام (1365هـ / 1965م). تنتظر ترجمته ومحطات حياته في: عمارة محمد، "الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، مصر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ص 5 وما بعدها، وعند الشيخ رضا محمد رشيد نفسه (1324هـ)، "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده"، ط1، مصر: مطبعة المنار.

³ - هو السيد جمال الدين بن صفت، عربي الأصل، أفغاني المولد، ينحدر من بيت عظيم له المكانة السنية بين الأفغانيين، ولد عام (1314هـ / 1897م)، تلقى العلوم الدينية والعربية وعلم الفلسفة والتصوف بكابل، ثم رحل بعدها إلى بلاد الهند والحجاز لإكمال تعليمه، ثم عاد إلى بلاده فنقل منصب الوزير الأول ف حكومة بلاده، ليرحل بعدا إلى كثير من البلاد كتركيا ومصر،

ينظرون فيه بمنظار واقعهم، وبأعينهم لا بأعين من سبقهم من أهل التفسير لكثير من قضاياها، وكل ذلك من منطلق أن الأمة متى حيل بينها وبين الإقبال على هذا الكتاب الذي هو معجزة الله الخالدة المتجددة في كل جيل، فقد حيل بينها وبين حياتها الحقيقية التي إنما تكون بهذا القرآن، ولذلك طفق الشيخ محمد عبده يحيي بدعوته هذه روح العودة إلى القرآن إقبالا عليه وتثويرا لمعانيه في إحياء الأمة، وتحييدا لكل الحجب¹ التي تمنعها من ورود حياضه حتى ولو كانت تتعلق بفهوم السابقين، إذا كان من شأنها أن تعطل عقل الأمة عن الإبصار لأدوائها، وتشخيص دوائها، فالمنطلق في رؤية الشيخ محمد عبده من القرآن لإصلاح حياة هذا الإنسان، وتحقيق نهضته في كل عصر؛ " فكان القرآن حينئذ على ما رآه الشيخ محمد عبده الدواء الشافي للمسلمين مما هم فيه، ولكنهم لا يتناولونه، فأين اليد التي تقرب من هذا المريض داوؤه وتناولته إيّاه، لا جرم أنها لن تكون إلا يد التعليم الصحيح للإسلام والتفسير الحكيم للقرآن (...) وهناك ابتداء ينتهج النهج الذي رآه الموصل إلى تحقيق حالة إسعاد المسلمين، وهو منهج تقرير العقيدة الدينية، وتفسير القرآن تقريبا وتفسيرا يتجردان عما رُبط به كل منهما من الطرائق الملتزمة والأنظار غير المسلمة"²، ولسان الحال يقول: "أفليس في هدى القرآن الذي هدى من كان قبلهم ممن هم أجهل منهم وأضل؛ ما هو كفيل بإصلاح ذلك الفساد، فما بال الأولين اهتموا بهدى الكتاب المبين، فأصلحوا ما بهم من فساد، وقوموا ما بهم من منحرف، وهؤلاء الآخرون عجزوا عن إصلاح فسادهم، وعلاج دائئهم، مع أن الدواء الذي عالج أوائلهم بالأمس موجود بين يديهم اليوم، فكانوا كالذي يتجرع العُصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله"³.

ومن الدوافع الكبرى والمقتضيات المنهجية الكامنة وراء الدعوة التجديدية للتفسير عند الشيخ محمد عبده؛ ما اعتبره صوارف عن النفاذ إلى روح القرآن ومعانيه الباعثة للأمة من مرآد الجهل

وهناك نشر فكره ومنهجه، فكان تلامذة وروادا حملوا فكره الإصلاحية، وقد كانت له آراء سياسية وآراء في القضايا الاجتماعية والدينية وغيرها من المجالات، وقد أخرج من مصر ورحل إلى باريس، والتقى بكثير من المفكرين، وهو ملهم مدرسة المنار، ومؤسس مجلة "العروة الوثقى"، وأحد كبار الرواد الذين تأثر بهم الشيخ محمد عبده، توفي الشيخ جمال الدين الأفغاني عام 1254هـ/1897). تنظر ترجمته مفصلة: عمارة محمد، (1988م)، "جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام"، ط2، القاهرة: دار الشروق، ص15 وما بعدها وينظر: أمين أحمد (1975م)، "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" ط3، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص129 وما بعدها، وينظر: النجار عبد المجيد، (1999م) "مشاريع الإسهاد الحضاري". ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص86 وما بعدها.

1 - ما من شك أن نهضة كل أمة تنطلق من تحييد كل العوائق التي تحول بينها وبين أسباب الرقي، ويأتي في مقدمة ذلك إزاحة خلل فكرة النهوض في ذهن أبناء الأمة، فما لم ترح الأمة عن ذهنها هذا الخلل في الفكرة لا تقوم لها قائمة، ولذلك تركز جهود المصلحين على هذا الجانب، ينظر أثر خلل الفكرة في اليهود: النجار عبد المجيد، (1999م)، "عوامل الشهود الحضاري"، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 18 وما بعدها. وينظر: حسنة عمر عبيد، (1991م)، "حتى يتحقق الشهود الحضاري"، ط1، بيروت: المكتب الإسلامي، ص: 10 وما بعدها.

² - ابن عاشور محمد الفاضل، (1970م)، "التفسير ورجاله"، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية ص: 164.

³ - ابن عاشور محمد الفاضل، (1970م)، "التفسير ورجاله"، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية ص: 164.

والتخلف والهوان، ويقصد بذلك بعضا من تلك العلوم الواسلية المرتبطة بالقرآن الكريم، والتي تضخمت حتى حجبت المقصد الأسمى من إنزال القرآن؛ وهو هداية الإنسان، ولذلك ما فتئ يلهج بضرورة تجاوز كثير من العلوم التي زاحمت المقصد الأصلي من الإقبال على تفسير الكتاب واستلهاه أنواع الهدايات منه، ولهذا نادى بضرورة تجديد النظر في كتاب الله من منطلق حاجة العصر، لا من منطلق حاجة من مضى؛ "ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر: لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن؛ لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة، واستنبطوا الأحكام منهما، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها، هكذا زعم بعضهم، ولو صح هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثا يضيع به الوقت سدى، ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم.

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]، فهل يعقل أنه يرضى منا بألا نفهم قوله هذا، ونكتفي بالنظر في قول ناظر فيه، لم يأتنا من الله وحي بوجوب اتباعه، لا جملة ولا تفصيلا¹.

ومن المقتضيات العلمية الحضارية التي حدت بالإمام إلى المناداة بالتجديد في التفسير اضطراب مناهج العلوم الدينية في عصره، والتي أفضت إلى ركود العلم في الأمة، فركدت بركودها مناهج التلقي لهذا الكتاب وفهم مقاصده العليا في الخلق، فكان الشيخ محمد عبده ممن انبروا لإصلاحها من خلال الدعوة إلى تجديد النظر في هذا الكتاب، وفي منهج تفسيره وتدارسه، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن هذا الباعث الإصلاحية لدى الشيخ محمد عبده: "نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة، وكُتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكان الأستاذ الإمام محمد عبده أعلى الحكماء صوتا بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بيانا لأضرارها وسوءاتها ومعاببها، وأسدهم رأيا في تغييرها، بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملا جديا في ذلك"².

المبحث الثاني: معالم التجديد في التفسير عند محمد عبده

لا يُماري أحد أن رؤية الشيخ محمد عبده للتفسير فتت عن منهج جديد في التعامل مع كتاب الله تعالى، بما حملته من الدعوة إلى تجديد النظر فيه بما يحقق الثمرة العملية من وجوده في حياة الأمة، وذلك بأن تحيا به من خلال إحياء منهجه واقعا عمليا في حياتها، فكانت دعوته تلك تحمل

¹ - عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده"، ط1، القاهرة: دار الشروق، 9/4.

² - الإبراهيمي أحمد طالب، (1997م). "آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي"، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 342/1.

لعصره منهاجا جديدا في التعامل مع كتاب الله تعالى، جعله الشيخ منطلقا وبُغْة لإصلاح واقع الأمة؛ وهو منهج يكاد يُجمع الباحثون على أنه حمل من مقومات التجديد في التفسير ما استطاع به الشيخ محمد عبده أن يزاحم كبرى مناهج التفسير في تاريخ الأمة، ويقارع أشهر المدارس التفسيرية، بل ويكون مصدر إلهام لكثير من مفسري العصر الحديث¹، من حيث لفته الانتباه إلى جوانب ستطبع منهج اشتغال المفسرين في العصر الحديث، وفي مقدمتها العناية بإظهار مقاصد الكتاب العزيز، وما من شك أن منهجه في التفسير قد عُدَّ من بين إصلاحاته العملية الكبرى في تجديد التعامل مع نصوص التراث من خلال "درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يَسْفُهْه إليه سابق"²، وكان منهج تفسيره "قيضا من إلهام الله، أجره على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنه مما لم تتطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب (...). إنه المنهاج المعجزة في التفسير المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع، وأبلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله في القرآن وبين آياته في الأكوان... وآية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسان العرب ولسان الزمان، فيه وجد علم التفسير وتم، فهو تفسير لمعجزات القرآن وليس مجرد تفسير القرآن"³، إنه المنهج المعاصر في التفسير الذي خالف فيه مناهج من سبقه من المفسرين، وجعله منطلقا لترجمة رؤيته الإصلاحية التي بناها على جعل القرآن موئل الأمة الأساس وميزانها القسطاس.

ومن هنا أمكن الوقوف على كثير من معالم التجديد للتفسير عند الإمام محمد عبده من خلال:

■ الإعلاء من سلطان العقل في تفسير آيات الكتاب العزيز، مقابل التقليل من الاعتماد على روايات المأثور، وهي إحدى معالم التجديد في التفسير عند الشيخ محمد عبده، وسمة بارزة طبعت منهجه فيما نقل عنه فيه، حتى إن المحققين من الباحثين ليرونها من خواص منهجه التي تفرد بها ولم يشاركه فيها أقرب الناس حملا لمنهجه، وهو تلميذه وراعي فكره؛ الشيخ محمد رشيد رضا، ذلك أن الشيخ محمد عبده كان ممن يتصدى للتفسير مُعَوَّلًا بشكل كبير على النظر العقلي، ومعليا لسلطانه في تفهم حقائقه، ولعل من نتائج ذلك تقديمه للمعقول على المنقول عند التعارض كما سلف بيان، وأما تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا فقد أعاد كتابة تفسير المنار بعد وفاة شيخه،

¹ - من هؤلاء الشيخ عبد الحميد ابن باديس في الجزائر، والعلامة الطاهر بن عاشور في تونس، والشيخ المراغي، والأستاذ سيد قطب، والشيخ شلتوت والشيخ أبو زهرة في مصر، والمودودي في باكستان وغيرهم من أعلام التفسير في العصر الحديث. ينظر الإبراهيمي أحمد طالب، (1997م). "آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي": 342/1 (مرجع سابق)، وينظر: عبد الحميد محسن (1996م)، "تجديد الفكر الإسلامي"، ط1، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص109. وينظر غير هؤلاء الأعلام عند: أمين عثمان، "رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده"، (د ط)، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ص227-236.

² - الإبراهيمي أحمد طالب، (1997م). "آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي"، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 343/1.

³ - المرجع السابق.

لكن بمنهج آخر أحيا به المنهج الأثري في التفسير¹، مما جعل منهج الإمام محمد عبده يخبو وسط هذا المزج، وهو أمر جر على الشيخ رشيد رضا أقلام النقد من حيث ما كان له من الأثر في ضمور منهج الإمام فيما فسره مما نقله ودَوَّنَه الشيخ رشيد رضا، يقول الدكتور محمد عمارة: "ونحن نقول إن المزج بين تفسير الشيخ رشيد رضا لم يكن له ما يبرره، خصوصاً بعد إضافات الشيخ رشيد الكثيرة التي ضَمَّنَهَا هذا التفسير عند طبعه ككتاب مؤلَّف من اثني عشر مجلداً؛ اشتملت على ما فسره الشيخ رشيد بعد وفاة الإمام حتى قول الله سبحانه في سورة يوسف: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]، ذلك أن منهج كل من الرجلين مختلف عن الآخر إلى حد كبير، وذلك بحكم التكوين الفكري والموقف والمنطلق لكل منهما... وهو الفرق بين رشيد رضا السلفي الأثري الذي يقدِّس النصوص ويقدمها على نظر العقل، ومحمد عبده الذي كان يقف بعقله ونظره أمام قضايا القرآن وآياته، غير حافل بما قدمه من سبقه من المفسرين من آراء وتخريجات"².

■ **التركيز على بيان مقاصد القرآن الكبرى في هداية الخلق:** وهي من السمات المميزة لصرح التجديد في تناول التفسير عند الشيخ محمد عبده، بل يمكن القول إنها السمة المهيمنة عنده على سائر السمات الأخرى؛ فهي المقصودة بالذات وغيرها لها كالأدوات، بل إنها الداعية عنده إلى تجاوز كل ما يحجب الأمة عن الانتفاع بهدي القرآن ونفاذ أثره في الأمة، وفي هذا يقول إن: "التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس - على أنه فرض كفاية - هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: 51]، ونحوهما من الأوصاف، فالمقصد

¹ - وهو الأمر الذي صرح به الشيخ رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار بقوله: " هذا وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه - تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حججهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس، وأستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته وتجديد شباب ملته الذي هو المقصود بالذات منه". رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار، أو تفسير القرآن الحكيم مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب: 16/1.

² - عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده"، ط1، القاهرة: دار الشروق: 251-252/1.

الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن¹، "لهذا كان الذي نُعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره؛ أي من فهم الكتاب من حيث هو دين، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا، وما يكونون به سعداء في الآخرة"².

■ **الدعوة إلى تجاوز كثير من وجوه التفسير التي هي من أقوال الرجال واجتهاداتهم، والتي تحجب عن النفاذ إلى مقاصد القرآن في الخلق:** ما من شك أن هذا من لوازم الخصيصة السابقة الذكر في معالم تجديد التعامل مع التفسير عند الإمام محمد عبده، وإنما قصدنا إلى أفرادها بالذكر لما يلحظ من قوة حضورها في منهج الإمام التفسيري، وكثرة تنبيهه عليها، فقد كان يرى أن ما توسع فيه السابقون من المفسرين في بيان وجوه الإعراب والبلاغة والبيان والتخرجات الأصولية والفقهية وتأويلات المتصوفة؛ كل ذلك كان يراه الإمام جهدا شاغلا عن الانتفاع بالقرآن في أسمى مقاصده، حتى عدّه من الصوارف عن هدي الكتاب ومقصده من التنزل، وفي ذلك يقول: "كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخرجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن؛ هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصدّ قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن، نعم؛ إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن، فنون العربية لا بد منها، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضاً، كقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه - كل ذلك يعين على فهم القرآن"³.

■ **التركيز على فقه السنن الكونية والتشريعية والاجتماعية التي حفل القرآن بالتنبيه عليها، والتي من شأنها أن تلهم الأمة سبل النهوض، وتحقق لها أسباب الشهود، وقد كان هذا الأمر صبغة اصطبغ بها منهج الإمام في التفسير، وأساساً من أسس إكمال التفسير على منهجه مع الشيخ رشيد رضا، وهو أمر كان بيّناً من خلال ما كان يُنشر للإمام في مجلة العروة الوثقى، بل هو**

¹ - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 22/1، (مرجع سابق)، وعمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 13/4، (مرجع سابق).

² - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 18/1. (مرجع سابق):

³ - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 08/1، (مرجع سابق)

رأس الأمر في منهجها، يقول الشيخ رشيد رضا: " وأهم ما انفرد به منهج " العروة الوثقى " في ذلك ثلاثة أمور [ذكر على رأسها] بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقى الأمم وتدليها، وقوتها وضعفها"¹، وما من شك أن تفسير الإمام كان مجسدا لهذا المنهج ذي الطابع المقصدي العملي في حياة الأمة.

■ **الدعوة إلى تحرير معان جامعة لآيات الكتاب، وتقليل دائرة الاختلاف الواقع فيها:** سلك الشيخ محمد عبده مسلك الدعوة إلى صرف جهود العناية بالكتاب العزيز في مصب بيان مقاصده، والخلوص إلى تقرير معان جامعة لآياته، بدل كثرة الاختلافات التي إنما أتت من جهة التوسع بالاشتغال بالوسائل على حساب المقاصد، مما منع الأجيال الحاضرة من الانتفاع الأمثل بمعاني الكتاب، يقول: "وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب، ثم يثبتونه في الناس ويحملونهم عليه"².

■ **ربط التفسير بالواقع:** وقد كان غرض الإمام أن يُخرج للناس منهجا في التفسير يبرهن به على قدرة هذا الكتاب على الإجابة على مشكلات الناس في عصره، فكان يسعى جاهدا إلى ربط معاني الكتاب بواقع الأمة، تحقيقا لمبدأ نفاذ أحكامه في واقعها، يقول في إحدى رسائله لأحد أعضاء مجلة العروة الوثقى: " داوم على قراءة القرآن، وتفهم أوامره ونواهيته ومواعظه كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي، وحاذر النظر إلى وجوه التفسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه (...) ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه"³.

لقد خطت يمين الإمام منهجا جديدا في التفسير استطاع أن يجد له موطئ قدم بين مناهج التفسير ومدارسه القائمة في الأمة، كما استطاع أن يأخذ بتلابيب منهج كتابة التفسير لجيل بأكمله، على اختلاف في درجة وقوة اعتماد منهجه بينهم.

¹ - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 11/1، (مرجع سابق)

² - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 22/1، (مرجع سابق)، وعمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 13/4، (مرجع سابق).

³ - عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993 م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 1/ 670-671، (مرجع سابق).

المبحث الثالث: أسس النقد والمراجعة ومنهج فقه الاختلاف عند محمد عبده في مجال التفسير

1. أسس النقد والمراجعة عند الإمام الشيخ محمد عبده في مجال التفسير.

لا يكاد يختلف اثنان أن فكر رواد مدرسة المنار قد حمل لواء النقد والدعوة إلى مراجعة جوانب كثيرة في منهج التعامل مع التراث الإسلامي فهما وتزيلا، ولا تكاد تخطئ عين المطلع على فكر هؤلاء الرواد؛ أن الشيخ محمد عبده كان من أبرز من حمل هذا اللواء، إن لم يكن أكثرهم؛ على اعتبار طبيعة المهام والوظائف التي اضطلع بها في ساحة قطره، وما نسجه من وجوه العلاقات المختلفة مع رواد الفكر الإسلامي في مختلف الربوع¹، فضلا عن حجم القضايا التي تصدى لها بعُدته الفكرية، وزاده المنهجي في إطار ما عبر عنه بعض الباحثين بالمشروع الحضاري للشيخ محمد عبده، والذي ترجم لرؤيته التجديدية الإصلاحية في مختلف مجالات الحياة الإسلامية، والذي انبنى في جزء كبير منه على اعتماد منهج النقد والعروج من معرجه لتجديد أثر هذا التراث في واقع الأمة، فكان النقد للمناهج السائدة في التعامل مع التراث أحد السمات البارزة في الفكر التجديدي الإصلاحي للشيخ محمد عبده، والذي آل به إلى دعوته إلى مراجعة شاملة لمقومات التعامل مع هذا التراث؛ حتى يكون مدخلا إلى إحداث نهضة حضارية يظهر فيها أثر الوحي جليا في واقع الأمة.

ومن المجالات التي برز فيها هذا المنهج النقدي بشكل لافت علم التفسير، الذي شكل حسب الباحثين مجالا خصبا لبسط الرؤية التجديدية في فكر الإمام، وبسط الرؤية النقدية فيه، والدعوة إلى مراجعة المنهج السائد في التعامل مع قضاياها.

وقد تميز نقد التفسير عند الشيخ محمد عبده؛ بكونه نقدا في المنهج والمضمون من الداخل والخارج، حدًا به إلى دعوته إلى اطراح كثير مما علق بالتفسير، مما من شأنه أن يخرج عن مقاصده الكبرى في الأمة، بل وصل به الأمر في دائرة هذا النقد إلى حد اعتبار بعض مناهج التفسير مُبعدةً الأمة عن المقصد الذي وُجد لأجله هذا العلم في الأمة، داعيا إلى أن يُيَمِّم علماء الأمة في العصر الحديث وجوههم صوب تفسير ينبض بجارات الأمة، ويعكس همومها وانشغالاتها من منطلق أن القرآن معجزة الله الخالدة المتجددة في كل جيل، فلا مندوحة عن إقبال الأمة عليه بروح الافتقار إلى هديه، ولا مندوحة للتفسير في أن يستجيب لهذا المقصد العظيم، فيتجاوز - حسب رأي الشيخ محمد عبده - كل ما يمكن أن يحول بين الأمة وبين كتاب ربها، ومن ذلك تلك المناهج التي أوغلت في التوسع في بعض متعلقات التفسير، فانشغلت ببنيات الطريق عن المقصد الأسمى من التفسير، وقد

1 - ينظر ما كتبه د. أمين عثمان في "رائد الفكر المصري محمد عبده": 213-236، (مرجع سابق)، تحت عنوان "أشعة الأستاذ الإمام"، حيث ذكر من تأثر بمدرسته من العلماء والرواد سواء داخل مصر أو في العالم الإسلامي.

جعل الشيخ محمد عبده ذلك مدخلا لنقد الجمود على أقوال المفسرين، كما اتخذهُ بُلغةً إلى نقد كثير من المضامين التفسيرية التي إنما هي من أقوال الرجال واجتهاداتهم، ومن ثم قامت مسوغات الدعوة عنده إلى مراجعتها بعد نقده لها.

ويمكن تجلية أسس النقد والمراجعة لعلم التفسير عند الشيخ محمد عبده في الآتي:

- **نقده التوسع في الاعتماد على الروايات المأثورة في التفسير:** فقد كان يراه من الحُجب التي تمنع النفاذ إلى معاني الكتاب، وتصرف المشتغل بالتفسير عن الوقوف على حقائقه الهادية ومقاصده الحادية، وفي هذا يقول: "إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس، المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات، التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً"¹، فكانت الدعوة منه قائمة على ضرورة تجاوز جوانب كثيرة في هذا النمط من التفسير، وبناء منهج جديد قائم على النظر العقلي فيه بما هو مبيّن لمقاصده، وكاشف عن أسراره في الهداية لقاصده.
- **نقده الجمود والتعصب على أقوال الرجال في التفسير:** وهو منهج طبع فكر الشيخ محمد عبده في دعوته التجديدية لمناهج التراث الإسلامي، بحجة أن أولئك نظروا في الكتاب بما تفرضه حاجة عصرهم، فلا معنى لأن يجمد المعاصرون على أقوالهم، بله أن يتعصب لتلك الأقوال التي ينص الشيخ محمد عبده على أنه لم يقدّم دليل شرعي على وجوب اتباعها واعتمادها؛ "فهل يعقل أنه يرضى -سبحانه- منا بألا نفهم قوله هذا، ونكتفي بالنظر في قول ناظر فيه، لم يأتنا من الله وحي بوجوب اتباعه، لا جملة ولا تفصيلاً"².
- **نقده التوسع في كثير من العلوم الخادمة للتفسير على حساب بيان مقاصد الكتاب وهداياته:** وقد انبنى هذا الجانب من النقد عنده على أن تلك العلوم قد صارت تصرف عن تلمُّس الهدى من الكتاب، الذي إنما أنزل لتحقيق الهداية للتي هي أقوم، فكيف تنصرف الأمة عن هذا المقصد الأصل، وتبذل الجهود في خدمة قصود أخرى يفضي الانكباب عليها إلى تقويت مقصد الهداية الأسمى وهو الأصل، فكان يقول إن: "من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات الإسرائيلية، وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم

1 - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 10/1. (مرجع سابق).

2 - عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 9/4، (مرجع سابق).

الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصدق قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن¹.

■ **نقده ضمور البعد المقاصدي في التفسير:** وهو لازم لما سبق من نقد التوسع في العلوم المرتبطة بالتفسير، الصارفة - حسب رأي الشيخ محمد عبده- عن الالتفات إلى مقاصد الكتاب التي كان يرى ضرورة تجديد النظر في التفسير على أساسها، فقال في سياق نقده لهذا المنهج السائد: "وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي"².

■ **نقده للاختلافات الكثيرة في معاني آيات التفسير:** وقد عدّ ذلك من جملة ما يمنع من انتفاع الناس بهدي الكتاب؛ "وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب، ثم يثبونه في الناس ويحملونهم عليه"³.

■ **دعوته إلى مراجعة منهج التفسير ومراجعة مضامينه بما يستجيب لحاجات الأمة وينبض بهومها:** وتلك هي الغاية من وراء دعوته التجديدية في هذا المجال، وقد جسدها واقعا عمليا فيما كان يلقيه من الدروس التفسيرية بالرواق العباسي بالأزهر، فقد ترجمت تلك الدروس لرؤيته التجديدية في المنهج، وكذا في مضامين التفسير⁴ حيث؛ "كان درس التفسير [عنده] سائرا على منهج الاعتناء بحاجة العصر وعدم التقيد بما هو موجود في كتب التفسير، وتدارك ما خلت منه مرامي الحكمة الإسلامية الجديرة بالإبراز والتقرير"⁵، وقد تولى الشيخ محمد رشيد رضا نقل جزء من هذه الرؤية فيما كان يدونه وينشره في العروة الوثقى، أو فيما كتبه استقلالا في تفسير المنار، وإن كان النقاد يرون تباين منهجه في تفسير المنار عن منهج شيخه محمد عبده كما سبق بيانه.

وبهذا يكون الشيخ محمد عبده قد جسّد هذه الرؤية النقدية للمناهج السائدة في التعامل مع التفسير، ودعا من خلاله إلى مراجعتها لبناء منهج معاصر في التفسير يمتح من الموجود لتحقيق

1 - عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 9/4، (مرجع سابق).

2 - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 18/1. (مرجع سابق).

3- رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 22/1، (مرجع سابق). وعمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 13/4. (مرجع سابق).

4 - أمين أحمد (1975م)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط3، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص: 17-18.

5 - ابن عاشور محمد الفاضل، (1970م)، "التفسير ورجاله"، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، ص168.

الشهود، يقول صاحب "التفسير والمفسرون": "كان الأستاذ الإمام هو الذي قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد، والتحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر في كتاباته وبحوثه، ولم يجر على ما جمده عليه غيره من أفكار المتقدمين، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقة"¹.

2. منهج فقه الاختلاف وتدبيره عند محمد عبده في مجال التفسير

إن المتأمل في المنهج التجديدي لعلم التفسير الذي حمل لواءه الشيخ محمد عبده، وما انطوى عليه من أبعاد نقدية ودعوات لمراجعة مضامينه ومناهجه، ليسترعي انتباهه طبيعة رؤية الإمام لفقه الاختلاف من داخل مجال علم التفسير ومنهج تدبيره له، ويمكن حصر معالم منهج الإمام في فقه الاختلاف في لآتي:

■ **إيمانه بمشروعية الاختلاف في مناهج التفسير بين العصور:** وما دعوته إلى تجديد منهج تناول التفسير قضية ومنهجاً؛ إلا ترجمة لأصل هذه المشروعية في هذا الاختلاف، وتجسيد لحق المتأخرين في تجديد النظر في هذا الكتاب العزيز، بما هو محقق لألوان الهداية التي إنما أنزل القرآن ابتداءً لتحقيقها، بما يجعل النظر فيه ملبياً لحاجات إنسان العصر، لا لحاجات غيره من العصور.

■ **إيمانه بمشروعية الاختلاف في مضامين هذا التفسير:** خاصة تلك التي مرجعها إلى أقوال الرجال واجتهاداتهم، لا إلى الوحي المعصوم، وقد انبنى على هذا نقده الواسع للتعصب والجمود على أقوال السابقين في التفسير وعدم الخروج عنها، وقد كان يقول: "إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نُزِّل إلينا"².

■ **دعوته إلى التركيز على هدايات الكتاب العزيز وبيان مقاصده في الخلق:** واعتمادها منهجاً للتقليل من دائرة الاختلاف بين أقوال المفسرين في بيان معاني آيات الكتاب العزيز؛ "التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون: هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف ينتزه عنه القرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾³، وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب، ثم يبيثونه في الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم

¹ - الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، القاهرة: مكتبة وهبة: 407/2.

² - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 22/1، (مرجع سابق).

³ - النساء: 81.

لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل، والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل¹.

■ نقده لاختلاف أقوال المفسرين الناجمة عن توسعهم في بعض النواحي من المعاني المشغلة عن المقصد الأصلي من التفسير والبيان لمعاني آيات الكتاب العزيز، وقد كان يرى أن "من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصدق قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن: نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن، فنون العربية لا بد منها، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضاً، كقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه - كل ذلك يعين على فهم القرآن"².

الخاتمة:

تبين بما سبق عرضه الإسهام الكبير لمدرسة المنار من خلال جهود أحد أعلامها؛ وهو الشيخ محمد عبده في تجديد ونقد ومراجعة مناهج التراث الإسلامي؛ التفسير نموذجاً، وهو ما يعتبر جهداً تجديدياً إصلاحياً، ترجم لرؤية المدرسة وفكرها، والتي تبلغت بتجديد مناهج التراث الإسلامي لمحاولة إصلاح واقع الأمة، وإحداث التغيير المنشود فيه.

كما كان هذا الجهد التجديدي النقدي في مجال التفسير الذي خط معالمه الشيخ محمد عبده؛ أساساً ومنهجاً سيطلع مرحلة من الاشتغال بكتاب الله تفسيراً وبياناً؛ وإن اختلفت درجة إعمال هذا المنهج من بعده، من خلال انخراط ثلة من أعلام التفسير في العصر الحديث في إعمال بعض من مقتضيات هذه الرؤية، خاصة ما تعلق منها بالتركيز على استلهام السنن، إضافة إلى إعمال البعد

1 - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 22/1، (مرجع سابق)، و عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده": 13/4.

2 - رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار: 08/1.

المقاصدي في التفسير، وهو ما يدل على أن الجهد الذي بذله الشيخ محمد عبده؛ كان جهدا استثنائيا إحيائيا، استطاع به أن يستقطب إليه رواد الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، كما استطاع بذات المنهج والجهد أن يتدافع مع مناهج أخرى، قصدت إلى هدم أثر النص القرآني في الأمة؛ جمودا على آراء السابقين، أو تحللا من كل ضابط هو شرط في صحة التفسير للكتاب المبين.

ولئن كان جهد الشيخ محمد عبده جهدا كبيرا في تجديد التفسير؛ إلا أنه لم يسلم من سهام النقد؛ خاصة في إطلاقه عنان العقل في التفسير، لدرجة الإغراب فيه أحيانا، وهو ما يفسر مخالفة بعض كبار الرواد له، المتأثرين بمنهجه في ذات العلم، وفي مقدمتهم تلميذه الشيخ رشيد رضا، الذي حاول أن يتدارك بعضا مما رآه نقصا في هذا المنهج، وبعضا مما حاد فيه صاحبه عن الأصل الذي عُلم بالاستقراء ثبوته من أكثر من جهة، وهو أمر لا ينفك عن كل جهد بشري تواق إلى انتشار الأمة من ركودها، فلا شك أن تَوَثَّرَ السياقات الحضارية والاجتماعية من حيث هي هموم يحملها المجددون والمصلحون؛ أن تؤثر في منهج وطبيعة تعاملهم مع النص الشرعي، تفسيرا وبيانا، وتوظيفاً وإعمالاً، لكن ذلك لا يُنْقِصُ من عظيم الجهد التجديدي الإصلاحية الذي بذله هؤلاء الرواد المجددون المصلحون خاصة، ومدارسهم التي ينتمون إليها عامة، لا سيما إذا قرئت تلك الجهود في سياقها الفكري والحضاري والاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الإبراهيمي أحمد طالب، (1997م). "آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي"، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ابن عاشور محمد الفاضل، (1970م)، "التفسير ورجاله"، (د ط)، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية.
- أمين أحمد (1975م)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط3، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
- أمين عثمان، (د ت) "رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده"، (د ط)، مصر، المجلس الأعلى للثقافة.
- حسنة عمر عبيد، (1991م)، "حتى يتحقق الشهود الحضاري"، ط1، بيروت، المكتب الإسلامي.
- الذهبي محمد حسين، (د ت) التفسير والمفسرون، (د ط)، القاهرة، مكتبة وهبة.

- رضا محمد رشيد (1324هـ)، "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده"، ط1، مصر مطبعة، المنار.
- رضا محمد رشيد (1990م)، تفسير المنار، أو تفسير القرآن الحكيم، (د ط) مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبد الحميد محسن (1996م)، "تجديد الفكر الإسلامي"، ط1، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- العقاد عباس محمود، (2013م)، "عقبى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده"، (د ط)، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم.
- عمارة محمد، (2006م)، "الإصلاح بالإسلام، معالم المشروع الحضاري للإمام محمد عبده"، ط1، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر.
- عمارة محمد، (1988م)، "الإمام محمد عبده، مجدد الدنيا بالدين"، ط2، القاهرة، دار الشروق.
- عمارة محمد، (1988م)، "جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام"، ط2، القاهرة، دار الشروق.
- عمارة محمد، (د ت)، "الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية"، (د ط)، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع.
- عمارة محمد، (د ت)، "الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية"، (د ط)، مصر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع.
- عمارة محمد، تحقيق وتقديم، (1993 م)، "الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده"، ط1 القاهرة، دار الشروق.
- النجار عبد المجيد، (1999م) "مشاريع الإسهاد الحضاري"، ط1 بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- النجار عبد المجيد، (1999م)، "عوامل الشهود الحضاري"، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.